

القديس فرنسيس كسفاريوس

بقلم الاب جبرائيل عقيقي اليسوعي

الدعوة

عجيب أمر مواطنه ذلك الشريف الزاهد اغناطيوس دي لويولا ! اما حله أن يقاسمه داره ويلزم صحته رغم ما يلقي من نفوره ويرى من ازدراؤه برثائه مظهره .

ما أشد ما بينهما من الاختلاف وما بينهما من الاتفاق ؛ كلاهما ذو أصل شريف ، وكلاهما طالبان ، جميعهما في جامعة باريس طلب العلم كما جمعتهما الفاقة ، غير أن اغناطيوس راضٍ في فقره ، يخدم الطلاب ويستجدي قوت يومه مسروراً ؛ وفرنسيس ثائر على ما نكبت به أسرته من الفقر ، يحاول المحافظة مع غرة نفسه وشرف أصله .

يدعوه اغناطيوس الى الزهد في الدنيا وهو راغب فيها ، طامع من كرامتها ، مولع في مجالس أهلها . يقول له : « يا فرنسيس ، ما يفيد الانسان رجعة الدنيا اذا خسر الأخرى ؟ » ويرى فيه النفس الكبيدة والرجل الكفى لعظام الأمور ؛ وما زال به حتى أنس إليه ؛ وعرف فرنسيس ما عند رفيقه ومواطنه دي لويولا من الفهم والحزم والإقدام ، مع الحبة في أمور الدنيا والدين ، فوثق به وتلمذ له ، ومارس رياضته أياماً كان في خلالها يبيت نفسه بتختلف ضروب الإماتة . لبث يولى الرسول قبل اهتدائه ثلاثة ايام لا يأكل ولا يشرب ، وصام فرنسيس أربعة ايام لا أكلاً ولا شرباً ، فانجلت له في تلك الايام ، على أنوار النعمة أسرار الحياة وشربها في الاتصال بالله من نشوة الفرح وبنا في خدمته من الشرف والسعادة فانضم الى مرشده القديس اغناطيوس مؤسس الجمعية اليسوعية وكان هو وأربعة آخرون نواة دوحها الوارفة ، يوم نذروا في معبد مونتارتر النذور الثلاثة ١٥ آب ١٥٣٤ وأضافوا اليها نذر الطاعة

للحبر الأعظم ، على أن يوجههم الى أي صقع من أصقاع الارض ، بين الضالين والكفار وغيرهم .

وكانت الهند حينئذ أرحب الاصقاع وأحوجها الى من ينادون فيها بالانجيل ، وقد صارت محط الانظار منذ نزل فيها الاسبان والبرتغاليون ، وخالة وتجاراً وجنوداً . فطلب ملك البرتغال من اغناطيوس ان يرسل الى تلك الديار اثنين من جميعته وشاءت العناية ان يكون فرنسيس اول رسول منها الى الشرق .

رسول الهند

فرنسيس سفير الجبر الروماني في الشرق الاقصى ، يسافر من لشبونة في ٧ نيسان ١٥٤١ مع نائب الملك ، ولا خادم معه ولا ثوب يثبته ، بل كان هو الخادم لجميع المسافرين . فيصل بعد ثلاثة عشر شهراً الى جاوه عاصمة امبراطورية البرتغال ، فتعبد الحامية الى الميناء . لتحفي بقدمه فاذا هو قد ذهب الى المستشفى ، يؤاسي المرضى ويمنع الاسرار . ثم هو يحضي الى السجنون ليخبري بن تكديس فيها من الميبد والسود والهنود ويقدم على خدمة المجذومين في معتقلاتهم لا يهرب العدوى ولا ينفر من مخالطة البؤس والشقاء . غني بنفسه موشح بقداسته ، يفشل منظاره في النفوس ما لا تفعله خطب ابلغ الراعظين .

مراني الهند ومدنها وجزائر محيطها ما أكثرها من جاوه الى توافنكور ، الى مليابور الى ملقا وجزائر الصيادين ، الى مور ومولوك وسيلان وغيرها ، طاف فيها جيماً ، وبشر وعثد عشرات الالوف من بينها حتى كانت يده تحذر من كثرة التعبد . وقد أضرم نار العبادة في قلوب الجميع ، فأت الالوف منهم شهداء حباً لله كما كان الالوف يموتون في بداية النصرانية وعهد الرومان فرخين مقتبطين .

من أحصى كل من هدى الى معرفة الله في كل مركب سافر فيه وكل بلد دخله من مغرب الشمس الى مشرقها ؟ لقد ردّ في شهر واحد في توافنكور من النفوس ما لم يردّ مثله جميع مرسلتي البرتغال في ثلاثين عاماً . كان يوجه جلّ جهده الى الفقراء والبائسين والمبتدئين وكان له في ارتدادهم تغزية وفرح كثير ، أما اغنياء المستعمرين من برتغاليين وغيرهم فقد كان يحزنه بعدهم

عن الروح المسيحي فيما كانوا يعاملون به اهل تلك الديار المساكين، من العنف والظلم والفساد، إذ يبادلونهم الجواهر والذهب والعاج بأحق صنف النسيج والسلع الزجاجية، فكان يربطهم ويشكهم الى الحكام ليخففوا من جشعهم وشغفهم بالمال.

رسول اليابان

جاء وهو في ملقا تاجر ياباني اسمه أنجر، يطلب منه أن يزيل ما في نفسه من الوسوس والأوهام، فوعده القديس بالشفاء إن هو آمن واعتد، فوضي الرجل، فأرسله الى مدرسة الآباء السرميين في جاوه ليتعلم هو وخادمان له التعليم المسيحي، ثم عثده هو وخادميته فشققي التاجر وزال ما كان به من القلق، وتاق من نشوة فرحه ان يشرك بمادته كل اهل بلاده، فجعل يرغب الاب المحسن اليه في الذهاب الى اليابان ويذكر له ما عند أهلها من لين الطباع وحسن الاخلاق وأن عندهم ديورة وصوامع مختلفون اليها ويحتلون فيها، وان فيهم تحشناً وتمنعاً من الحياة، فالت نفسه الى ذلك وشر أن الله يدعوه الى القيام بهذه الرسالة، غير أن اليابان كانت حينئذ بركائلاً هائجاً من الثورة بعد خلع الميكادو وانتشار الفساد والقتل بين أفرادها وأحزابها وتمصّب رجال الدين فيها...

هذه الاخطار على شدتها لم تمنع الرسول من المضي الى هاتيك الديار، فركب البحر اليها في ٢١ حزيران ١٥٤٩، يصحبه تلميذه أنجر وتزل في داره بمدينة كاغوشيما عاصمة ساكوما، ولما علم ملكها بقدومه اليها رحب به وسر بما قدم له من هدايا، سبها صورة العذراء وابنها. فاستطاع القديس أن يدخل هو وترجمانه صاحبه منازل اليابانيين ويحصل بكهنة يوزا في كاغوشيما ويؤمنو وياماغوش ويبيشر في كل مكان فتسع منه بلاد الشمس المشرقة، لأول مرة اسم يسوع المسيح، ويأتي فيها بالمعجزات فينقاد لتعليه ماوك وروسا. وجند وعامة وكهنة أصنام، آمنوا جميعاً واعتدوا، وقد ثبتوا في ايمانهم رغم ما لقوا في سبيله من اضطهاد وظل بنوهم من بعدهم متمسكين بعبادة المسيح ثلاثة أجيال وهم منتظمون عن العالم المسيحي الانتطاع كله، كما ظل ذكر

رسولهم راسخاً في أذهانهم وحبّه في قلوبهم .
وكان القديس مشتاقاً ان يدخل كيوتو عاصمة اليابان ومركز الثقافة فيها ،
ويتصل بمجامعها الحس وطلابها أربعة الآلاف ، فيلقي في ذلك الحقل الحبيب
بذار الخلاص ؛ غير انه لما دخلها في كانون الثاني ١٥٥١ كانت الثورة قد
اجتاحتها فهذمت قصورها ومبانيها وتركتها طمة للنار والحراب . فلم يبق له
ألا أن يوجّه نظره نحو الصّين . فعاد الى الهند ونظّم فيها شؤون الآباء والرسالات
وهمّ بالسفر .

وانه ليغزم عليه إذ قامت في سيله وفي سيل الوصول الى الصين مضاعف
وأخطار لا يتوهمها الفكر ولا يصبر على مضضا الآ قديس مثله : فمن والر
عات الى ملاحين قساة الى بحر عنيد ، الى أصدقاء . مُشفقين الى كل ما يسمع
من الأخبار عن تعصب الصينيين وعن فتكهم بكل من تحدّثه نفسه أن يظا
أرضهم من الاجانب . تحالف كل هؤلاء . عليه فلم يثنوا عزمه عن قصده ، فسافر
وانتهى بعد احتمال كل ما هددوه به من الاهوال ووصل الى مدخل الصين الى
جزيرة سنسيتاقو قبالة كانتون .

لقد بلغ الغاية ، انما خاتمه الصحة ، فوهن جسده ووهت قواه ، فانطرح
على الشاطئ في كروخ حقير تحفّق فيه الرياح من كل جانب ، وأخذ يعالج
سكرات الموت وعيناه تنظران الى تلك الارض التي أحبها ، والشر تطلع
عليها وتغيب فيود لو تكون . روحه بين أشمتها فيقرها بحبه كما تنمرها بدورها .

إحملي يا شس وجدي وانثري في ثنايا الثور طيب المحل
أشعني أن أملا الصين جوي هل يرى النور له من دلي
غبري . كلّ بينها أنهم من ضلومي في المحل الأفضل
واذكري يا شس ما أنتِ سري دمر دوحى صورة الله الميلي
ليس وجدي ذا حدود ينتهي إنه من أكسات الأزل

بهذه العواطف فاضت نفس روح رسول الهند ابن القديس اغناطيوس في
اليوم الثاني من كانون الثاني ١٥٥٢ وهو وحيد لا أحد حوله إلا صليبه مضموا
الى صدره وعمره ست وأربعون سنة . فانطلقت بجوته تلك الشعلة الزكية ، بعد
أن أضاءت المشرق وأشعلت حرائق من الحب الإلهي في كل بقعة من بقاعه .

من ذا برد النار جد خمودها ضرمنا وقد دثت بها جلاها

هوذا القديس فرنسيس كسفاريوس الرسول الذي حقق ما كان يريده مؤسس
جمعية يسوع من ابنائه؛ يريد ان يكون اليسوعي منهم راهباً متأملاً وعاملاً متأملاً،
يجمع بين الكمالين كالالحياة الرهبانية المتأمله وكالالحياة الرهبانية العاملة؛ فلا
يكون للعمل أن يفقده التأمل والاتحاد بالله ولا للتأمل والاتحاد بالله أن يفقده
حسن الياقة وإتقان الإدارة ذلك ما قام به رسول الهند خير قيام : يعتزل
حيناً في منسك من المناسك يتاجي فيه الله ويزداد له حباً بل يندوب به وجداً
حتى يقول : « حسي يا رب حسي » ثم لا يلبث ان يخرج من عزله فيصحب
الجئود إلى ساحات الحرب ويزور المرضى والسجناء ويدير الرسائل ويرشد
المرسلين . وأينما حل بذر العجايب والمعجزات برأً وبجوراً ، يتم ويتعذب ولا
يغبأ بالتعب ولا بالمذاب ، فهابته الطبيعة جميعها : البحر الهائج والملوك الطغاة
والخطاة المزمنون والمرضى والموت نفسه فكأن هياجهم وأنقذ الفرائس من بين
برائتهم . كان قوة فوق الطبيعة تتغلب على جميع المصاعب والمخاطر الطبيعية .

فحق للكنيسة ان تعظم على الدهر فضائله وحتى للأجيال أن تحفظ ذكره
ونحيه في مطلم كل تذكار مشوي كما نحيه في هذا التذكار المنوي الرابع ٢ ك ٢
١٩٥٢ ونقول له :

وزعت روحك كالبير على النفوس لكي تطيب الى المدى انفسها

